الحق والباطل

يقول زيد قولاً او يرتئي رأياً ويكتشف اكتشافاً او يصنع آلة فيذيع قوله ويُعمل برأيه وينتشر اكتشافهُ وتُستعمل آلتهُ باسرع مما قدَّر كان الناس كانوا في انتظار ما قال او ارتأى او صنع فاغتنموهُ حالما خرج من القوة الى الفعل

ويحاول غيرهُ ان يفعل فعلهُ فلا يلتفت احد اليهِ او يلتفت الناس اليهِ في اول الامر ثم يهملهُ اكثرهم ولا يبقى معهُ الاَّ نفر قليل منهم واكثرهم من سخاف العقول

مثال ذلك القول بالجاذبيَّة العامة والرأي بالانتخاب الطبيعي واكتشاف ميكروبات الامراض وعمل الآلات الكهربائية كالتلغراف والتلفون والنور الكهربائي فانها كلها صارت من ممتلكات الناس اجمع فتجد ان كتب العلم صارت تبنى على الجاذبيَّة العامة والانتخاب الطبيعي وكتب الطب وتدبير الصحة على وجود ميكروبات الامراض وتارة تجد مدينة خالية من التلغراف والتلفون والنور الكهربائي ولكن انظر الى دعاوي المدَّعين شفاء الامراض بالمغنطيس الحيواني واكتشاف الخفايا بالسحر وشفاء المجانين بالتعزيم ومعرفة الغيب بمناجاة الارواح ونحو ذلك مما يقوم المدَّعون بهِ آونة بعد اخرى ويصدقهم بعض ضعاف العقول ولكن جمهور العقلاء لا يقبل لهم دعوى ولا يعتمد على اقوالهم في مصلحة عامة او خاصة . وما ذلك الاَّ لان الامور الاولى حق ترتاح اليهِ العقول والامور الثانية باطل ترفضهُ الافهام

جاءنا رجل لبناني قبيل كتابة هذه السطور وقصَّ علينا القصة الثانية قال — : بلغني ان في القرية الفلانيَّة فتاة صغيرة السن ترى الغيب فقصدتها مع جماعة وسألها كلٌّ منا مسائل مختلفة فكانت تجيب عنها بالدقة التامة وسألتها انا ان تذهب بروحها الى غرفتي في سوق الغرب وترى ما فيها وتخبرني عنهُ . فنظرت الى ظفر ابهامها وامعنت نظرها فيهِ ثم قالت ذهبتُ فرأيتُ غرفتك وفيها كذا وكذا . وعدَّدت لي اسماء الاشياء التي فيها ووصفت ما لا تعرف اسمهُ منها وصفاً يطبق عليهِ فقالت انها رأت ذنب فرس معلقاً في الحائط . وكان هناك منشة ذيان من شعر الخيل وهي لم ترَ غرفتي في حياتها ولا أتت سوق الغرب قط ولا يزيد عمرها على خمس سنوات

ثم سألتها عن رأيها في ذلك فقلنا لهُ انهُ يصعب علينا تصديق ما رواهُ ونرجح انهُ متوهم ما هو قائم في ذهنهِ لا ما تكلمت بهِ الابنة اي ان الابنة تكلمت كلاماً مبهماً لا معنى لهُ وهو فسرهُ او فهمهُ حسب ما هو قائم في ذهنهِ

وجاء آخر بعد ذلك وهو من العلماء المدققين في امور كثيرة وروى لنا حادثة لا تقلُّ في

غرابتها عن الحادثة الاولى . قال أُصيبت فتاة برمد في احدى عينيها وكان المدُّ شديداً جدًّا حرمها النوم والراحة ودعي لها طبيب العيون فوصف لها قطرة وقال انها تزيل الألم فلم تزله فاعطاها قطرة أُخرى وقال انها ان لم تزل الالم في ساعة من الزمان فلا امل بشفاء عينها . فسهرنا نراقبها دقيقة بعد دقيقة وهي تزداد انًّا الى ان انقضت الساعة والالم على حاله فقطعنا الرجاء من شفائها . وتذكَّر ابوها حينئذٍ ان رجلاً من معارفهِ يرقي العيون برقية يكتبها في ورقة توضع على العين فتشفى . فمضى اليهِ وكان الوقت عند الفجر وايقظهُ من نومهِ وطلب منهُ ان يكتب لهُ الرقية المشار اليها فكتبها وجاء بالورقة ووضعها على العين المصابة وربطها عليها وللحال صرخت الفتاة ووقعت على الارض كأنهُ اغمي عليها . فقال ابوها ان الرجل قال لي ان ذلك يحدث لها حالما توضع الورقة على عينها . ونامت الفتاة قليلاً ثم استيقظت وقد زال الالم وشفيت عينها تمامًا

وتعليل هذه الحادثة صعب ولكن لو حضرها كاتب مدقق وكتب كل ما حدث بالتدقيق لما ظهرت غريبة الى هذا الحد ولأمكن تعليلها بسهولة . ويظهر لنا ان الراوي زاد اموراً واهمل اموراً على غير قصد منهُ وان القطرة التي استعملها الطبيب هي التي شفت العين وازالت الألم او ان الالم كان عصبيًّا محضًا والفتاة اعتقدت ان الرقية تشفيها فاثر اعتقادها في مجموعها العصبي تأثيرًا ازال الالم الوهمي . ولو كان لهذه الرقية الفعل الذي ينسب اليها لانتشر استعمالها انتشار التلغراف والتلفون والكهربا ولكن الناس يحفظون الحوادث القليلة التي تصيب فيها العلاجات الوهميَّة ولو اتفاقًا وينسون الحوادث الكثيرة التي لا تصيب فيها فيذكرون الاولى وينقلونها الى غاية

ومن هذا القبيل كل ما يروى عن فعل بعض المياه المقدسة واستعمال الحجب والكتابات التي تشفي الامراض فهو اما مبالغ فيهِ الى حد الغرابة ولو عن غير قصد واما ان الشفاء كان قاصرًا على بعض الآفات العصبيَّة التي تشفى من نفسها غالبًا

لما كان الرجل المدعي القداسة في الشوفيات من اعمال لبنان في اوج مجدهِ جاءنا استاذ احدى المدارس وقال لنا ان ولدًا من تلامذتهِ كان اقدع وعالجهُ احد الجراحين المشهورين فلم يتمكن من اصلاح قدمهِ فذهب الى الشوفيات وغسل رجلهُ بماء اغتسل بهِ ذلك القديس فشفي تمامًا وانهُ رآهُ بنفسهِ يمشي سليمًا بعد ان كان اقدع وتحقق ذلك دليلاً لافاعتنا بقداسة الرجل وبانهُ يفعل العجائب . فطلبنا منهُ ان يحضر الولد لنراهُ فوعدنا باحضارهِ ومضت الايام ونحن نطالبهُ باحضارهِ وهو يماطلنا واخيرًا اعترف لنا ان الولد لم يشفَ وانهُ نقل الخبر الذي اخبرنا اياهُ نقلاً عن الناس صدقهم فلما طالبناهُ باحضار الولد مرة بعد الاخرى ذهب

ورآهُ فاذا هو لا يزال اقدع كما كان ولا حجة لنا اخبرنا به قبلاً من انهُ رآهُ يمشي سليمًا

والغالب ان الذين يرون الغرائب ويروونها هم من الذين تخدعهم اوهامهم وفيهم ميل الى تصديق الغرائب. وقد يشوى هذا الميل في بعض الناس حتى يصدقوا ما لا يصدَّق ولا دليل على صحتهِ

قيل ان رجلاً ضاف عالمًا من علماء الحيوان وكان العالم مغرمًا بجمع الافاعي وتصبيرها وحفظها. وذهب الرجل لينام في الغرفة التي اعدَّها لهُ مضيفهُ فلما خلع ثيابهُ التفت واذا في الغرفة افعى كبيرة رفعت رأسها وفحرت فاغرةً كأنها تهمُّ بالوثوب عليهِ والشرر يقدح من عينيها والظاهر انهُ كان يعتقد ان الافعى تسحر الانسان ثم تلتهمهُ فوقف في مكانهِ مسحورًا ووُجد في الصباح ميتًا في مكانهِ مع ان الافعى مصبرة تصبيرًا وعينيها من زجاج ولا يعقل ان مضيفهُ ينومهُ في غرفة فيها افعى سامة

وقد تنظر في دعاوي المخرفين فتراها شبيهة بالنتائج التي يصل اليها العلماء بعد البحث والتحري ولكن نتائج العلماء ثابتة يقبلها العقل لانها مبنيَّة على اصول حسابيَّة وحقائق طبيعيَّة مقرَّرة واما دعاوي المخرفين فلا تحتمل البحث ولا الامتحان. يقول لك علماء الفلك ان الكواكب تسير في افلاكها بكذا من السرعة ويستدلون من حركاتها على الاوقات التي يكسف بها بعضها بعضًا فيقع الكسوف والخسوف في الايام والدقائق التي عينوها تمامًا لانهم اكتشفوا نواميس سيرها وعرفوا اشكال حركاتها ولم يبقَ عليهم الاَّ ان يستخرجوا مواقعها بالقواعد الحسابية واذا وجدوا ان الواقع لا ينطبق على النتائج الحسابية عرفوا سببهُ حتى لقد استدلوا على وجود بعض السيارات قبل ان رآها احد

ويدَّعي مناجر الارواح انهم يمرجون في غيبوبتهم الى السماء ويجولون بين الكواكب ويخبرون عمَّا رأوا فيها او يزورون منازل الاموات ويتحدثون مع ارواحها وينقلون اليك ما سمعوهُ منها. فهل تصدِّق اقوالهم كما تصدِّق اقوال علماء الفلك. الا يرى كل ذي عقل سليم ان اقوال علماء الفلك نتائج من مقدمات يشهد العقل بصحتها ويؤيدها الاختبار وان اقوال الذين يدَّعون مناجاة الارواح خرافات وخزعبلات ليس لها اساس على يصدِّقهُ العقل ولا منها نتائج صحيحة يؤيدها الاختبار ولذلك تشيع النتائج العلمية لانها صحيحة مفيدة وتهمل خزعبلات المخرفين لانها فاسدة عقيمة

تجلس على مكتبك وتكتب بضع كلمات الى صديقك المقيم في فرنسا او انكلترا او اميركا وترسلها الى بيت التلغراف وانت واثق انهُ لا تمضي دقائق كثيرة حتى يطَّلع صديقك على ما

كتبتهُ في الورقة لا لانهُ يمكن ارسال الورقة اليهِ في هذه الدقائق القليلة مسافة مئات والوف من الاميال بل لان عامل التلغراف يستعمل قوَّة طبيعية خفية تحرك قلماً في فرنسا او انكلترا او اميركا فيكتب هناك اشارات تدل على الكتابة التي كتبتها في الورقة . وهذه القوة ترسل على سلك التلغراف وقد ترسل من غير سلك كما في تلغراف مركوني . والناس كلهم يصدقون ذلك الآن ويعتمدون عليهِ وقد صارت اكثر معاملاتهم بهِ حتى الفلاح الصعيدي الذي يجهل مبادئ القراءة والكتابة وكل علم ولا يعرف الاَّ الناس والمحراث يذهب الى بيت التلغراف ويرسل اشارة برقية الى المورد كروس ورئيس النظار وستشار الداخلية والجرائد المحلية يشكي من ظلم مأمور المركز لهُ ويدفع اجرتها وهو واثق تمام الثقة ان شكواهُ تصل حالاً الى الذين ارسلها اليهم

ويدَّعي قوم انهم يرسلون افكارهم الى اصدقائهم او معارفهم البعيدين عنهم او أن افكار اصدقائهم ومعارفهم تنقل اليهم من مسافات شاسعة كما تنقل حركات التلغراف بالكهربائية . يدَّعون هذه الدعوى ويجاهرون بها ويوردون لك شواهد كثيرة على صدقها ولكن لا يستطيع احد منهم ان يخبرك بنتيجة واحدة عمليَّة لهذا التأثير يمكن الاعتماد عليها في المعاملات. فبالتلغراف مثلاً تعلم اسعار البورصة في لندن ونيويورك واخبار الحروب النائية في اقصى الارض ولكن هل استطاع احد في هذه المدينة او غيرها ان يعرف افكار تاجر او قائد في مدينة اخرى بهذا الشعور الموهوم

ومثل ذلك ما يرى من نجاح صناعة الطب في شفاء الامراض واستئصال الأوبئة فان علم الطب مبنيٌّ على امور اكثرها يقيني ولذلك خضعت لهُ العقول واجمع الناس على العمل بهِ فزال الخطر من العمليات الجراحية بعد اكتشاف اسباب الفساد وطرق اتقائها وخفت وطأة الاوبئة بعد اكتشاف طرق انتشارها وعولجت الامراض المعدية بالمصل الذي يزيل تأثيرها. ومن الناس من يدَّعي انهُ يشفي الامراض بطرق روحيَّة فتروج بضاعتهُ مدة ثم تكسد لان الناس يكرهون الشفاء بغير مرارة الدواء والم سكين الجراح بل لان دعاوي الذين يدَّعون شفاء الامراض بالوسائل الروحيَّة لم تثبت على الامتحان وان نجحت احياناً فنجاحها وهمي او اتفاقي

ويضيق بنا المقام لو اردنا تعداد كل اساليب الاوهام والخزعبلات التي يستعملها بعض الناس عن سخافة في عقولهم او عن خبث واحتيال ويصدقها كثيرون لضعف عقولهم او لغفلة يحيتهم واختبارهم ولعلَّ دليل الشيوع والاستعمال اقربُ دليل لتمييز بين الحق والباطل والصحيح والفاسد